عُقبة على شاطئ المحيط

للدكتور عبد الوهاب عزام

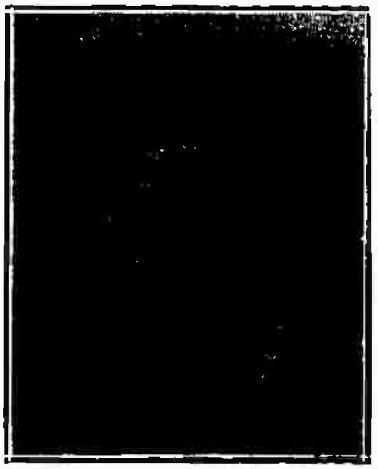

— ١ —

مَن القوم أوغلوا فى البيداء ، يجوبون سيناء ، قد أغذوا السير ، وأقلوا المَير ؟

من القوم تسبح بهم الجمال ، فى لجج الرمال ، وتغوص منهم الأشباح والظلال ، فى غمرات الآل.

تسيل بهم الهضاب إلى الوهاد ، وتفيض بهم الوهاد إلى الهضاب ، لا يألون تأوياً وإدلاجا ، ولا يشكون نصباً ولا كلالا ؟

من القوم ترمى عزائمهم الغايات ، وتطوى هممهم السبل ، سيان عندهم البعيد والقريب ، والعسير واليسير ؟

من القوم تضيء بالايمان قلوبهم ، وتقر على اليقين نفوسهم ، خدامهم القرآن ، وغناؤهم الأذان ، رحالهم معابد ، ومنازلهم[1] مساجد ، قد شروا لله أنفسهم ، وأرخصوا فى مرضاته أرواحهم ، ورضوا بما قسم لهم . وقد سايروا الشمس مغربين ، لا تصدهم الأهوال ، ولا تستردهم الأوطان ، كأنهم نجوم فى حبك الأرض ، تسير بقدر إلى قدر ؟

* * *

العرب المسلمون يقودهم عمرو ، يتوجهون تلقاء مصر . رموا الباطل فى جانب وسددوا إلى جانب ، وصرعوه فى ميدان وهرعوا إلى ميدان ؛ وهدموا سلطان الروم والشام وصمدوا لسلطان الروم فى مصر وأفريقية

بالأمس زحموا الصرح فانهار ، ونفخوا زخرف قيصر فطار ، وأشاروا إلى الصنم فسجد ، وخلى جبروته إلى الأبد . وضعوا سلطان هرقل ورفعوا سلطان الله ، وأقاموا الحرية فى مصارع العبودية ، وشادوا العدل على مقاتل الجور

واليوم يتبعون الباطل المهزوم ، ويشردون الزور المذود . إنهم يؤمون مصر . ومصر أكرم على الله من أن تكون مباءة الباطل ومثوى الجبروت . إنهم يسرعون إلى مصر . فعفاء على الروم وسلطانهم ، وويل للباطل يدمغه الحق ، والظلم يصمد له العدل ، والاستعباد تثور به الحرية ، ويل للروم يسير إليهم العرب

— ٢ —

أترى البحر المائج ، واللج الهائج ؟ أترى السفن على الثبج راجفة ، والجموع فوقها واجفة ؟ أترى الموج يتلاطم ، والسفين يتصادم ، والجيوش ملتحمة ، والخناجر والسيوف مختصمة ؟ أترى جنداً يلوذون من حر الضراب الى برد الماء ، ومن ذل الاسار الى عار الفرار ، وجنداً ثبته اليقين فثبت ، وآثر الموت على العار فظفر ؟

واعجبا ! قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدأماء ، وصار حداة الابل أمراء السفن ، جاوزوا الكثبان البيض إلى اللجج

---

(١) منازل الطريق

اليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثني عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهى بعد آثر نسائه لديه ، وأجلهن ، وأصغرهن سناً . روى ابن الأثير باسناده الى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت الا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً اذ حرمنى أولاد النساء ، قالت عائشة : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً »

* * *

تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور فى غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الانسان إنسانا ؟

عبد الحميد العبادى

الخضر ، فاتخذوا السفين جياداً والبحر مراداً . وهل الابل لا سفن الصحراء ، وهل السفن إلا أفراس الماء ؟ فما استبدل هؤلاء إلا سفينة بسفينة وفرساً بفرس

وانها ، على ذلك ، لأحدى العبر : أبناء البادية ينازلون الروم فى الأساطيل . معاوية وابن أبى سرح يقاتلان قسطنطين بن هرقل ، وقد جاءهم فى ستمائة سفينة تحمل جند الروم وتاريخ الروم ، وثارات الروم . وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضيع الأسطول المكتهل ، أن يغلب ابن أبى سفيان ابن هرقل ، أن يغلب العرب الروم فى بحر الروم[1]

— ٣ —

ماجزيرة العرب ، وفارس ، والشام ومصر ، وما الهند والصين ، والمشرق والمغرب فى همة هذه الشمس الوهاجة ، وعزيمة تلك الكواكب السيارة . قد استقر سلطان القوم فى مصر فلم يقنعوا ، وها هم قد غزوا برقة ورجعوا . أتحسب الأمد تطاول عليهم ، والشقة بعدت بهم فملوا أو خاروا ؟ تلبث قليلاً ثم انظر جيش العبادلة[2] يزحف الى افريقية فيظفر ثم يصالح . وما وراء الحرب والسلم الا المسير لاعلاء كلمة الله ، وبلوغ الغاية مما أرادوا فى سبيل الله

ويقف القوم سنين . وما هو الا الجام للسير ، والتحفز للوثوب ، والاعداد للجهاد ، والتريث للتثبت . وعما قليل يطوون المغرب لا تعوقهم الفيافى المترامية ، ولا تصدهم الجيوش الجرارة . تنظر الغد . فما بلغ القوم الأمل الموعود ، ولا قاربوا الغاية المقدورة

— ٤ —

عشرة آلاف تطوى الأوطان والقطان فى سبيلها ، وتطأ الأهوال والأبطال الى غايتها ! عشرة آلاف وفى الناس واحد كألف

تجمعت فى فؤاده همم ملء فؤاد الزمان احداها

عشرة آلاف قائدهم عقبة بن نافع قد عزموا ألا ينثنوا ، وصمموا ألا يهزموا ، وآلوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم ، وامتدت الأرض لأقدامهم

ها هو ذا عقبة يبنى مدينة القيروان ، فعل الغازى المصر والفاتح المقيم . وسيجعلها مبدأ السير وأول الفتح ، كأنهم ماقطعوا المهامه اليها ، ولا ساروا عن ديارهم قبلها

فى كل فج عزمهم سيار
الى الوغى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم ديار
الا ظهور الخيل والغبار

أرض الله ، وعباد الله : أينما توجهوا فهى أرضهم ، وحيثما حلوا فهى ديارهم . لا بعد عندهم ولا قرب ، ولا شرق ولا غرب « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »

ولكن عشرات آلاف من الروم والأفريق قد ساروا اليهم . لقد أعد الروم لهم ، وأزمعوا أن يحطموهم . فوا رحمتاه للأنجاد القليلين ، والغرباء النازحين !

كلا لا خوف ولا حزن ، ولا قلة ولا كثرة . انظرهم يديرونها على عدوهم حرباً طاحنة ، ويلجئون الروم وأعوانهم من لظى النار الى سلاسل الأسار — ألوف من الروم مصفدون

أترى الكثرة أغنت ، أم ترى القلة قلت ؟ ذلك آخر عهد الروم بافريقية

— ٥ —

أين الجنود البواسل ، والعبّاد الغزاة ، والبداة الذين خرجوا ينشدون الحق ويردون الجبارين الى العدل ؟ انهم ليسوا فى برقة ولا افريقية . . . . ها هم فى أقصى المغرب ! هم اليوم فى طنجة ! بل هم فى ايسوس . لقد انتهوا الى الساحل ، لقد انتهت الأرض وأسفا للجواد المتمطر لا يجد مجالاً ، والعزم المحضير لا يجد مضطرباً . قد بلغوا البحر فكيف المسير ؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة ، وبحر الظلمات فأى الفتح ؟

انظر عقبة تضيق بعزمه الأرض ، وتصغر فى عينه الأقطار ، فيندفع جواده فى البحر ويصيح :

« والله لو علمت وراءه أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله »[1]

(بغداد) عبد الوهاب عزام

(١) إشارة إلى موقعة السوارى سنة ٣١ هـ

(٢) جيش غزا إفريقية وفيه أبناء أبى بكر وعمر وعمرو والزبير وأبو ذؤيب الشاعر

(١) روى بعض المؤرخين أن عقبة فعل هذا حينما بلغ شاطىء المحيط الأطلسى